

دراسات في علم اجتماع الزمان Studies in sociology of time

د. بن معمر عبد الله¹

¹ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان: amrou20@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/01/28 تاريخ القبول: 2019/08/30 تاريخ النشر: 2019/09/15

الملخص

إن تجاوز مفهوم الزمان والمكان كمفهومين قبليين صوريين أدى إلى تقديم دراسات نظرية تجريبية عن الزمان. وخاصة في السنوات الأخيرة. ومن بين تلك الدراسات التي تنضاف إلى سابقتها دراسة "عبادة الإلحاحية. الإنسان المريض بالوقت لصاحبه نيكول أويير Nicole Aubert وفي هذه الدراسة تبرز الكاتبة أن الإلحاحية مست جميع مظاهر الحياة وأدت إلى الكثير من الصعوبات النفسية والاجتماعية. والدراسة الثانية تتعلق بالتسريع الذي ينحل بدوره إلى أبعاد مختلفة.

الكلمات المفتاحية: الزمن - الإلحاحية - التسريع - العولمة

Abstract:

The transcendence of the concept of time and space as two fictional tribal concepts led to the presentation of empirical theoretical studies of time. Especially in recent years. Among those studies that are added to its predecessor is the study of "the cult of urgency. The time-sick person accompanied by Nicole Aubert. In this study, the author highlights that the urgency touched all aspects of life and led to many psychological and social difficulties. The second study relates to acceleration, which in turn dissolves into different dimension

key words: time, urgency, acceleration, globalization.

المؤلف المرسل: بن معمر عبد الله ، الإيميل: amrou20@yahoo.fr

إن دراسة علم اجتماع للزمان يمكن العودة بها في علم الاجتماع الفرنسي إلى هنري هوبير ومارسيل موس ودوركايوم وموريس هالبواكس. أما علم الاجتماع الأمريكي فيمثل البدايات الأولى كلا من جورج هربرت ميد، وبرتيم سوروكين، وروبير ميرتون. وقد اهتم بموضوع الزمن فيها بعد جورج غورفيتش. أما الفترة الحديثة فهي تتميز بغزارة الأبحاث والتطورات النظرية التي بلغت أوجها في أعمال وليام WILLIAM MOORE وإيفيتار زوريافيل EVIATAR ZERUBAVEL في الولايات المتحدة، وأعمال وليام جروسان WILLIAM GRISSIN وريدولف ريزوهازي RUDILF REZSOIHZY في أوروبا.

الدراسة الأولى هي "عبادة الإلحاحية. الإنسان المريض بالوقت لصاحبه نيكول أوبر Nicole Aubert هدف هذا الكتاب ليس إعادة رسم تاريخ مفهوم الزمان في الفيزياء أو في الفلسفة، بل إنه يكمن في فهم كيف أن عصرنا يعيش تحولا جذريا في علاقته بالزمن وكيف أن هذا التغيير يمس بعمق طريقتين في العيش والعمل ويسهم في بروز نموذج جديد من الفرد، فرد مرن، مضغوط، يركز على المباشر، والمدني الأقرب والآن، فرد له هوية غير مؤكدة وهشة. من أجل إدراك طبيعة هذا التغيير، يكفي النظر إلى الاستعارات الأكثر شيوعا التي نستعملها بصدد الزمن، والتي ترجع إلى تدفق وهروب الزمن مثل الزمن ينقضي، الزمن يمر، الزمن يفلت، هذه الفكرة التي تربط الزمن بجريان النهر ترجع إلى هيراقليطس، الذي قال بالتغيير، "ونحن لا نستحم في النهر مرتين". والفئة الثانية من الاستعارات أكثر عصرنة ولكنها ترتبط بمفهوم غربي للزمن، يحيل إلى مفهوم الامتلاك والمردودية: لديه الوقت، يحتاج إلى الوقت، يضيع وقته، ربح الوقت كلها عبارات تكشف لنا أن الزمن يتمثل لنا كمعطى كمي نبحث عن إدراكه، وامتلاكه، ونريد السيطرة عليه. بهذا التصور الزمن هو شيء من الأشياء، خير يريد الإنسان اكتسابه أو الحصول عليه. والعبارات في هذه المسألة مرتبطة بتماهي الزمن بالنقود، خاصة بالعقلية الرأسمالية التي عبر عنها بنيامين فرانكلين بقوله: "تذكر أن الوقت مال"¹. هذا الشعور يهيمن في المجتمع الغربي، ويميز طريقته في إدراك الزمن.

دراسات في علم اجتماع الزمان

ومع ذلك هناك نمط ثالث من الاستعارات تتعلق بالوقت، أكثر حداثة، ولكنها غزت بسرعة كبيرة حقل التمثيلات المعاصرة الخاصة بالزمن. كل التحليلات الاقتصادية والاجتماعية تجعل منها حالة تقلص للزمن، وتسريع له، وضغط له، وكل ذلك فرضته العولمة والوقت الحقيقي للاقتصادⁱⁱ.

ما هو أكيد فيما يرى نيكول أوير ليس انتصار المجتمع الغربي في معركة كرونوس الذي يلتهم أبناءه وفق أسطورة كرونس، ولكن حياة الغربيين الثقافية تتغير جذريا.

وكما ظهرت استعارات جديدة بخصوص الزمن، فإن طرقا جديدة في العلاقة مع الزمن صارت مهيمنة. لقد غزت الإلحاحية Urgence والآنية والفورية حياة الإنسان الغربي. إنها تترجم في اليومي هذه الظاهرة العامة لضغط الوقت، وتندرج ضمن عملية كلية للمرور من الوقت الطويل إلى الوقت القصير. عملية بدأت منذ زمن طويل، ولكنها عرفت في السنوات الأخيرة تسارعا قويا وكثافة واضحة.

يمكن لمسها على عدة مستويات اقتصادية ومهنية في المقام الأول ولكن أيضا تكنولوجية وسيكولوجية، وعائلية وعلى عدة نواح تلك المتعلقة بالإيديولوجية، وأساليب العلاج النفسي والأدب أخيرا. وكل واحد منها يعكس ويترجم بطريقته تطور الإنسان المعاصر في علاقته بالزمن. وأساس هذه العلاقة الجديدة بالزمن تكمن في الارتباط الذي ظهر بين منطق الفائدة المباشرة، منطق أسواق المال التي تهيمن على الأسواق، وبين الفورية في الوسائل الاتصال الجديد، هذه العلاقة أدت إلى ميلاد فرد يعيش في الزمن الحقيقي، يعمل حسب إيقاع الاقتصادي، وصار سيدا على الوقت في الظاهر. ولكن المظهر خادع، ووراءه يختفي غالبا فرد مكبل بالزمن الحقيقي ومنطق السوق، عاجز عن التمييز بين الإلحاحية والمهم. لقد صار الفرد مريضا بالإلحاحية.

لكن الحاجة لا تظهر فقط على المستوى الاقتصادي فقط. إن التطورات التكنولوجية الحديثة (تكنولوجيا المعلومة، التكنولوجيا النووية...) وطرق الإدارة المرتبطة بها وسعت من الهيمنة المعممة للإلحاحية في المجتمع الغربي. لقد ساعدت أيضا في تطور أخطار جديدة تسمى بالأخطار (الزمنية بعض الأزمات الكبرى أو الكوارث الصناعية تشهد على التسارع أخطار الزمن داخل المنظمات وأهيار كثيف لعبادة السرعة والإلحاحية مثلا الحوادث الأليمة للنقل (البري والجوي...)).

بن معمر عبد الله

لقد جرى خلال العشريّات الأخيرة من القرن العشرين التركيز على الزمن بدلا من المكان. وتكرست أشكال من التعبير عن علاقة الإنسان الغربي بالزمن تتمثل في الإلحاحية والفورية والآنية والسرعة. وهذه الأخيرة تشكل العامل المشترك للأشكال الثلاثة الأولى. هذه المفاهيم المترابطة فيما بينها ولدت مع العولمة الاقتصادية والمالية انطلاقا من أواسط الثمانينات، وهذه العولمة ذاتها لم تكن ممكنة من دون الثورة في الاتصال.

ما يوحد المفاهيم الثلاثة الأولى: الإلحاحية، الآنية، الفورية هو مفهوم السرعة. وهي مفهوم هو ذاته يقع في قلب النظام الرأسمالي. كلما جرى الرأسمال بسرعة كلما ارتفعت نسبة الفائدة السنوية، من هنا البحث الجامح عن التسريع الذي نفذ إلى كامل تاريخ الرأسمالية. المعادلة التي تمخضت عن العولمة هي لأنه بقدر ما نمتلك من الزمن، نمتلك في الآن عينه أمكنة جديدة (الأسواق من أجل السلع)، وقد تم بذلك تزمين الفضاء العالمي. وهكذا فإن ميلاد الإلحاحية والآنية والفورية في الاقتصاد يتطابق مع ظهور هذا الزمكان المعولم.

إن التفسير الرئيسي لسيادة الإلحاحية ذو طبيعة في الوقت ذاته اقتصادية وتكنولوجية. فمنطق الأسواق هو الذي فرض زمانيته الخاصة وقاد إلى ميلاد إلحاحية عامة شملت مختلف مناحي الحياة. إن التكنولوجيا الجديدة للاتصال لعبت دورا أساسيا في تغيير الموقف من الزمن الذي لوحظ في السنوات الأخيرة. إنها إحدى أركان الزمن العالمي الذي وهو يفتح العالم لنا فإنه يغلقه علينا بطريقة مخالفة. التغير في الزمن أو بالأحرى انطلاقة بالزمن امتد إلى الحياة الشخصية والاجتماعية بطريقة رهيبية. الهاتف النقال يبدو من أكثر التكنولوجيات التي قلصت من الزمان والمكان خاصة مع ربطه بالإنترنت. لقد حدث تغير في المثل القائل: "كل شيء في وقته" وصار منذ الآن القول: "كل شيء عند ما أريد". إننا نستطيع إجراء عملية شراء عندما نرغب في ذلك ومن غير آجال، لسنا بحاجة لانتظار ساعة الأخبار، إننا نستطيع مشاهدتها عند ما نريد في القناة باستمرار، ونبعث برسالة في اللحظة المناسبة حسب رغبتنا.

تكنولوجيا الاتصال الآنية لها وجهان: من جهة أنها تمكن من ربح الوقت، والتحرر من إكراه الحضور الفيزيائي، والعيش حسب إيقاع الحاجة المباشرة، في وهم إبطال الزمن. ومن جهة أخرى إنها تولد إكراها

دراسات في علم اجتماع الزمان

جديدًا، وهو الإكراه المتعلق بالواجب تجاه الآخرين، إنما لا تمنح الفرد تزمين علاقاته ولكن ثمة آثار ترتبت عن الإلحاحية من بينها فقط أن الرابط الاجتماعي، لأنه لا يوجد وقت لدى الفرد للتبادل مع الآخرين. لقد انعدم رابط التواصل. وعلى المستوى السيكلولوجي فقد ولدت الإلحاحية أمراض خطيرة مثل الاكتئاب. هذا المرض المميز لعصرنا يكون الشكل الأكثر بروزًا. وهو متولد من الشعور بعدم القدرة على الإفلات من الإلحاحية، ومن ضرورة التسريع دون توقف، وهذا أدى إلى تولد الانطباع لدى الأفراد بالسقوط في حلقة مفرغة لا يمكن الانفلات منها.ⁱⁱⁱ

إن التآكل هو النتيجة المترتبة عن "عنف الزمن" الذي يشكل الإلحاحية.

ولفظ التآكل أخذته الكاتبة من ريشتر شار سينيت Richard sinnette الذي له كتاب: تآكل الطبع. من مظاهر هذا التآكل فقط أن الروابط الاجتماعية، والأمراض النفسجسمية، كآلام الظهر والأرق والقرحة المعدية والسرطان.

الفرد مريض بالإلحاحية وغريزة السيطرة على الوقت.

هناك وجه آخر مرتبط بالأمراض المتصلة بالإلحاحية يتعلق بعلاقة الفرد ببيئته والتحكم فيها، وكذلك بعملية وطريقة إنجازها بها. أمثال هؤلاء الأفراد يندرجون ضمن ما يسميه التحليل النفسي بالشخصيات الاستحواذية، هذه الشخصيات تكون محكومة بالأنما الأعلى. ومثل هذه الشخصيات تكون قلقة، وتحت طائلة الإحساس بالذنب، واحترام التزاماتهم وواجباتهم والتصرف في وفاق مع القيم الشخصية المتعلقة بالطاعة والمطابقة المستدخلتين في طفولتهم.

الإلحاحية تبدو في نظر هؤلاء الأشخاص الاستحواذيين أو شخصيات الأنما الأعلى كضرورة مطلقة. ومن المسلمات لديهم. كل شيء إلحاحي مستعجل، كل شيء يجب أن يتم في الفورية، وبالمثل كل شيء يجب أن يتم بشكل جيد. الشخصيات المريضة بالإلحاحية تفقد قدرتها على ترتيب المشكلات، كلها تكون مستعجلة، وتبدو في الوقت نفسه عاجزة عن التخلي عن بعض الأشياء (مثل هذا بدلا من ذاك أو هذا أقل من ذلك)^{iv}

بن معمر عبد الله

إن ارتباط بين إشكالية الاكتئاب والزمانية الجديدة التي تترافق مع التغيرات السوسيو-اقتصادية كبير جدا. الاكتئاب عبر عنه القدماء (هيبوقراط) بالمنحوليا، ولها اسم آخر هو النوراستينيا، وآخر هو البسيكاستينيا. التي وصفها جانيه. وكلها حالات مرضية تميل إلى الحزن. وهو حالة من عدم الراحة النفسية والجسدية والأخلاقية أصابت الإنسان المعاصر. لقد فاقت نسبة الاكتئاب في فرنسا 30% بين سنوات 1980-1990 ومن أشكال هذا الاكتئاب العصابات. وهذه الأمراض كلها لها علاقة بالزمن. إن لهذا المرض في الكوارث الصناعية. وللبرهنة على ذلك يميز نيكول أوير بين نوعين من الزمان: الزمان الدائري وهو زمان المجتمعات التقليدية الذي يقوم على التكرار ويرتبط بالمقدس. ويكون فيه الماضي والمستقبل متطابقان بحث أن أحدهما يحدد الآخر، فإذا كنا نعرف الماضي فإننا نعرف المستقبل. والنوع الآخر هو الزمان الخطي وهو زمان كمي يميز المجتمعات الغربية. هذا الزمان إذا فقد لا يعود، وسهمه متجه دوما نحو المستقبل ولذلك فإن الوقت الذي يمضي هو بالنسبة للإنسان الغربي مسألة حياة أو موت. وهذا الزمان هو زمن الإلحاحية، زمن الفعالية والنجاح والمردودية.

ومن أجل فهم الدور الذي يلعبه عامل الزمن والإلحاحية في تفجير الحوادث يجب أولا فحص العلاقات بين التكنولوجيا والزمن بالتفصيل. كيف أن التطور التكنولوجي الحديث غير تصورنا وعلاقتنا بالزمان والفضاء. كيف أن التغير الجذري الذي حدث مكن طرف تكنولوجيا جديدة. تتمثل الإشعاع النووي، والتلوث. وهناك مثال على ذلك هو حادثة تشيرنوبيل.

والتكنولوجيات المسماة محسوسة أو خطيرة، مثل النووي ووسائل النقل، والكيمياء... تلقي الضوء بأكثر وضوح على العلاقات الموجودة بين الزمان والإلحاحية والخطر أو الأزمة. تتجلى هذه العلاقة في النووي ووسائل النقل والغواصات النووية، هذه التكنولوجيات المستغلة من قبل منظمات ينتظر منها حذر أقصى ونسبة من الخطأ تقارب الصفر. هذه الخصائص تفسر أيضا لماذا أن الإلحاحية هي بعد مفتاحي في تسيير هذه المنظمات، بحيث أن أبسط حادث يمكن أن يتحول بسرعة إلى كارثة.

ينطلق مارتو روزا Hartmunt Rosa من حقيقة مفادها أن إلى غاية الثمانينيات مؤلفات علم اجتماع الزمن تبدأ كلها بنفس الملاحظة التي صارت وهي أن الزمن منقولة أساسية للواقع

دراسات في علم اجتماع الزمان

الاجتماعي. لكن لا يوجد علم اجتماع جدير بهذا الاسم. هذا الوضع يحاول روزا أن يعالجه بالكتاب الراهن.

لكن في بداية الثمانينات لاور R.Lawer وبرجمان Bergmann أشارا إلى مجموعة من الدراسات في علم الاجتماع الزمن.

حسب برجمان المشكل الرئيسي بالنسبة لكل تحليل اجتماعي للزمن راجع إلى غياب رابط صلب ومنظم مع النظرية السوسيولوجية. فالأبحاث السوسيولوجية حول الزمن كانت تقوم عموما على مفاهيم قبل علمية وتحكمية عن الزمن، مستعارة دون تمييز من الفلسفة أو من الأنثروبولوجيا، بل من الحس المشترك يمكن -فيما يرى روزا- تصنيف الأعمال في العلوم الاجتماعية حول الزمان إلى ثلاثة فئات رئيسية:

الفئة الأولى تتضمن عدد مرتفعا جدا من الأعمال التي جهدت، في شكل كتب تركيبية، في فهم كل التأملات المنجزة إلى نهاية اليوم في علم اجتماع الزمن وتنظيمها. هذه الأعمال في كل مرة تقريبا تستنتج أن المواد المفحوصة تثبت كم أن البنيات الزمنية للعالم الاجتماعي مهمة ومتنوعة، وأنه من الواجب إيلاؤها الاهتمام.

والفئة الثانية تجمع عدد من الدراسات المفصلة حول الزمن والبنيات الزمنية في مختلف العلوم وفروع العلوم الاجتماعية، ما يميزها هو التحليل الضعيف.

أما الفئة الثالثة فتتضمن على العكس من الفئة السابقة، سلسلة كاملة من التحليلات للزمن ذات النزعة النظرية، تتعلق بالتوضيح المنظم لمفهوم الزمن خاص بالعلوم الاجتماعية أو بالفلسفة، ولكن في وقت تبلغ البحوث درجة من التجريد بحيث أن الظواهر التجريبية المعنية تبقى مهملة.

والاختلاف بين الكتاب الذين تناولوا الزمن يبدأ من الأسئلة الأولية المتعلقة بحقيقة الزمن، أو حول معرفة ما إذا كان الزمن مقولة تنتمي للطبيعة، أو للحدس أو العقل أو أيضا أنه بنية اجتماعية، هذا الاختلاف تؤكد معالجات مفكرين وفلاسفة للزمن أمثال القديس أوغسطين، كانط، برغسون، ماکتجار Mctaggart، هيدجر، ميد، والمقاربات الفلسفية مثلها مثل الدراسات السوسيولوجية حول الزمن تميل إلى تقديم الزمن كلغز مغلق بينما التحليلات الأميركية تأخذ الزمن في أغلب الأحيان كبديهية.

بن معمر عبد الله

والنتيجة التي ينتهي إليها روزا هي أن هذه النتائج تجعل من الصعب إقامة علم اجتماع للزمن معترف به في حقل العلوم الاجتماعية.

ويصرح روزا منذ البداية أن عمله الحالي لا يجب أن يعتبر كإسهام في علم الاجتماع الزمن بما هو كذلك، إنه لا يتساءل عن ماهية الزمن، ولا عن طريقة التي يدخل بها ويؤثر بها في الممارسات والبنى الاجتماعية. إنه يحاول الإسهام في فهم ملائم للتطورات الاجتماعية المعاصرة.

ولذلك فإن الفرضية الرئيسية لكتاب هي: التسريع الاجتماعي يمثل بطريقة جوهرية في الحداثة المجتازة، في الحداثة المتأخرة، نقطة حرجة، يكون من بعدها الحفاظ على طموح الاحتفاظ بالتزامن والاندماج الاجتماعي مستحيلًا.^v

فالفرضية المنطلق منها لهذا العمل تؤكد أن تجربة الحداثة هي تجربة التسريع. التسريع هو السمة المميزة للتحولات في البنى الزمنية وأنه قوة عاتية في ثقافة الحداثة. وإن كان هناك من يعتبر أن التجربة المميزة للحداثة المتأخرة هو تزامن الأحداث والعمليات المتنافرة جدًا، التي تقود إلى حاضر ممتد (حسين بروس H. G. Brose) أو منتشر (حسب نوفوتني H. Novotny) والكتاب يصرح صاحبه روزا يطرح نفسه كمنظرة للمجتمع.

إن التسريع هو ثقافة الحداثة في أعين مؤيدي الإشكاليات الخاصة بعملية التحديث والنقاشات حول وجود أو عدم وجود قطيعة في هذه العملية، بين حداثة (تقليدية)، وحداثة متأخرة، تسمى ما بعد الحداثة، أو الحداثة الثانية، وكذلك استخلاص النتائج السياسية والأخلاقية لهذه القطيعة. ففرضية روزا الموجهة هي أن التحديث ليس فقط عملية تحول بنيوي وثقافي ذا دلالة عن البنى والآفاق الزمنية، وأن مفهوم التسريع accélération الاجتماعي هو الملائم من أجل فهم الطريق الذي يسلكه هذا التحول. في غياب دراسة تضع البعد الزمني في قلب التحليل، لا يمكن للنظرية الاجتماعية أن تأخذ في الاعتبار التحولات المعاصرة للممارسات والمؤسسات الاجتماعية ولا علاقة الفرد بذاته في المجتمعات الغريبة.^{vi}

الدراسات السوسيولوجية والأنثروبولوجية حول الزمن تتقاسم اكتشاف يقتضي نتائج أساسية:

دراسات في علم اجتماع الزمان

أولاً: ليس فقط قياس الزمن ولكن أيضاً إدراكه والآفاق الزمنية كل ذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالثقافة وإذن يتحول ذلك مع البنيات الاجتماعية. فالوعي بالزمن وتجربة الزمن بتحويلات حسب البنيات الاجتماعية والنماذج الثقافية.

ثانياً: الوعي بالزمن يتكون اجتماعياً كهايتيس اجتماعي، كطبيعة ثانية تشكل مكوناً بنية الشخصية وهذا ما بينه نورير إلياس في كتاب عن الزمن.

ثالثاً: المؤسسات الانضباطية كالسجون والمدارس والثكنات والمستشفيات والورشات الإنتاجية، تتميز قبل كل شيء بتنظيمها الصارم للوقت. التسريع إذن هو ثقافة الحداثة، في أعين مؤيدي الحداثة كما المعارضين التجربة المكونة للحداثة هي التسريع الهائل للعالم والحياة وبالنتيجة تدفق التجربة الفردية. ولذلك كل التاريخ الثقافي للحداثة يمكن أن يتم تأويله في ضوء تجربة الزمن والفضاء وهذا ما يذهب إليه الكثير من الكتاب. فكونراد P. Conrad طابق ببساطة وبشكل كامل بين مشكل الحداثة ومشكل تسريع الزمن وعالم الاجتماع الأمريكي بريمان M. Berman عرّف الحداثة كحالة من الدينامية المتصلة.

يقول كونراد "القضية عندما نتحدث عن الحداثة، هي تسريع الزمن^{viii}

يمكن تبني فرضية أن موجات التسريع، نواة عمليات التحديث، ناتجة أساساً عن الابتكارات النفسية وتطبيقاتها الصناعية. إدخال الآلة التجارية في المصانع، وبعد ذلك تقليل بناء السكك الحديدية، ظهور الدراسات ثم العربات وفي النهاية الطائرات، تسريع الاتصال بواسطة التلغراف ثم التلفون، وأخيراً الأنترنت... كل أشكال التسريع التكنولوجي في وسائل النقل والاتصال والإنتاج قامت بتحويل العالم المعيش وثقافة الحياة اليومية بطرق صادمة أحياناً، وولدت الشعور بالكائن داخل الزمن والكائن داخل العالم بنمط جديد.

التسريع في النظريات الكلاسيكية المعاصرة: التحليلات السوسيولوجية للأبناء الكؤوسيين لعلم الاجتماع، فيبر ودوركايم، وسيمل وتونير إلى حد ما، ولدت تحديداً في الفترة التي كانت ربما فترة التسريع الأكثر وضوحاً، فالمقاربة الماركسية تقدم نقطة الانطلاق من أجل تفسير ثلاثة أشكال من التسريع التكنولوجي، تسريع التحويلات الاجتماعية، وتسريع إبقاء الحياة.

بن معمر عبد الله

فير حدد خصائص الروح الرأسمالية في معالجة الزمن كمادة نادرة وثمينة للغاية. وهذا واضح منذ البداية عند ما يحيل إلى حكمة فرانكلين: الوقت مال.

الجنون والانشغال اللذان يميزان التجربة الأساسية للحدث، تسريع إيقاع الحياة بالإلغاء المنظم لفترات الراحة والأوقات الميتة، وطريقة الاقتصاد في الوقت حسب فير هي نتيجة لحالة الروح التي هي بروتستانية في أصلها (كالفنية وطيورية) والتي تعلمت فيما بعد. بالنسبة لها كل لحظة تضيق تفقد إلى الأبد، وتضيق الوقت هو الخطيئة القاتلة بين كل الخطاب. تراتبية وسلوك منظم للحياة تحت ما يمكن تسميته تقشفا زمنيا يصبح عنصرا مركزيا لتصور الحياة المعاصرة. من وجهة النظر هذه الزمن يبدو كافتراض ثقافي بدلا من كونه نتيجة بنيوية للرأسمالية. المهم عند فير هو أن التثمين البروتستاني جزء لا يتجزأ من حركة تاريخية عامة في الغرب: العملية الأساسية للعقلانية. باعتبار أن هذه العملية هدفها الربط بين الوسائل والغايات يمكن أن نؤولها كعملية تسريع تهدف إلى تحقيق متسارع للأهداف بتخفيض أقصى لعدد المراحل الضرورية أو يرفع فعالية الوسائل المتوفرة. العقلانية تعني بهذا المعنى الحصول على الأكثر في وقت أقصى.

حسب فير هذا التنامي للفعالية والسرعة هو ما يميز الأشكال الغربية والعقلانية البيروقراطية ودولة القانون، والتنظيم الاقتصادي الرأسمالي. بوجودها في قلب عملية التحديث، مبادئ التسريع مبادئ التسريع تلعب أيضا لدى فير دورا معتبرا حتى وإن لم يطور نظرية في التسريع الاجتماعي.

بالنسبة لدوركام فقد عرّف الأنوميا الاجتماعية كنتيجة لتحولات اجتماعية سريعة جدًا. ليس التحولات في ذاتها هي من يسبب الأنوميا وإنما إيقاع تلك التحولات.

بالنسبة لسيمل الحدث تتميز بالتناقض بين مدينة سريعة وريف بطيء. بين فردانية دينامية وبنيات جمعية ذات تعديلات بطيئة. ودوران النقود العصري -في نظره- يسهل ويضعف ويسرع المعاملات الاجتماعية والتجارية ويحرك أيضا كل العلاقات الاجتماعية "كل هذا يبين إلى حد النقود تطبع ارتفاع إيقاع الحياة"^{viii} هكذا يلخص سيمل تأملاته حول العلاقة بين اقتصاد النقدي والمعاصر (الرأسمالي) وإيقاع الحياة. ومن بين كل علماء الاجتماع سيمل هو الذي وضع التسريع في قلب تعريفه للحدث.

دراسات في علم اجتماع الزمان

أما فيريو P. Virillio وروهيس F. Reheis وكيركمان K. Kirkmann فقد حاولوا إعطاء

تعريف نظري للتسريع الاجتماعي.

ماذا نعني بالتسريع الاجتماعي: قدمت هيلغا نوفوتني التعريف التالي: "التسريع لا يعني فقط سرعة متنامية لجريان كل العمليات الاجتماعية، إنه يسبب معياراً زمنياً لحركية عامة متنامية، هي في نفس الوقت نتيجة لعملية النقل، المشروطة بالاقتصاد والتكنولوجيا، والخيرات، والكائنات البشرية، والطاقة والمعلومة التي يجب أن تحتاز مسافات زمنية مكانية"^{ix} إعطاء تعريف عملي لتسريع يجب التمييز بين نوعين أساسيين من التسريع:

1- التسريع التقني بالمعنى الواسع للكلمة.

2- الارتفاع في إيقاعات التحول الاجتماعي مثلاً تسريع تغيير الحرفة، أو الحزب السياسي أو الزواج أو أيضاً تحول البنيات العائلية والمهنية والأساليب الفنية.

أبعاد التسريع الاجتماعي:

للتسريع الاجتماعي ودوره في الحداثة ثلاثة أبعاد منفصلة ولكنها إمبيرياً متصلة

1- التسريع التقني: الشكل الأكثر وضوحاً والأثقل من حيث نتائج التسريع المعاصر وهو التسريع التكنولوجي للعمليات المتجهة نحو هدف. وسائل النقل، الاتصال وإنتاج المواد والخدمات تلعب دوراً أساسياً هنا. هذا الشكل من التسريع هو الأسهل على القياس والبرهنة. ففيما يتعلق مثلاً بوسائل النقل ثم المرور من سرعة 15 كلم/سا إلى ما يفوق 1000 كلم/سا سرعة وسائل النقل قلصت المكان وأدى ذلك إلى ما يسميه هارفي D. Harvey وآخرون تلاشي المكان وأيضاً في وسائل الاتصال. وليس سرعة نقل المعلومة هي التي يمكن ملاحظتها بل كمية المعلومات المنقولة خلال وحدة من الزمن. مقاسة بسرعة الضوء.

2- تسريع التغير الاجتماعي: إذا فحصنا آثار الابتكارات التقنية على المؤسسات والممارسات

الاجتماعية، من البين أن التغير الاجتماعي والابتكار التكنولوجي يمكن أن يتم التمييز بينهما بشكل

بن معمر عبد الله

صارم من الزاوية التحليلية حتى إذا كان طبيعيا من وجهة النظر التجريبية والتاريخية أنهما يسيرا جنبا إلى جنب.

2- التسريع التقني تسريع قصدي للعمليات الموجهة نحو هدف، أما تسريع التحولات الاجتماعية فيشير إلى الإيقاع الذي يتحول به أشكال الممارسة واتجاهات العمل من جهة، وأشكال الرابط الاجتماعي والنماذج العلائقية للآخر. المسلمة هنا، هي أن إيقاعات التغير هي نفسها تتغير بمعنى أنها تتسارع إن تبديل تنظيم العمل الخاص بالرأسمالية البدائية بتنظيم مُتيلر (نسبة إلى تايلور) يشكل مثالا على هذه التحولات الاجتماعية وأنه في الوقت ذاته ظاهرة تسريع تقني.

3- تسريع إيقاع الحياة: ارتفاع إيقاع الحياة هو بما ارتفاع عدد فصول العمل أو التجربة بوحدة الزمن لا يمكن أن يقلص ببساطة من تسريع التغير الاجتماعي، حتى ولو مثل طبيعيا رد فعل بديهي على هذا التطور. يمكن تعريف هذا الشكل الثالث من التسريع موضوعيا أو ذاتيا. موضوعيا تسريع إيقاع الحياة يمثل تقصير أو تكثيف فصول العمل، نفهم من هذا مثالا تقليص المدة المكرسة للوجبات أو النوم أو زمن الاتصال مع أفراد الأسرة، لكن أيضا محاولات اختزال فترات كلية لبعض النشاطات مثل خرجة إلى السينما، وجبة حفلة أو دفن ميت.

ولكن في مقابل التسريع الذي يشمل مختلف مناحي الحياة هناك ظواهر التعطيل والكبح. مثال ذلك ظواهر الازدحام في الطرقات. وأيضا الأمراض العصبية التي تبدو كمخارج مرضية لضغط التسريع المفروض من قبل المجتمع. ففي مراحل الانهيارات العصبية المريض يتكون لديه الشعور بأن الزمن متوقف. ويمكن أن نذكر البطالة أيضا.

التسريع التقني وثورة النظام الزمكاني:

التسريع التقني في وسائل النقل وفي الاتصال أدى إلى تغيير نظرة الإنسان إلى وضعه في العالم، بمعنى في المكان والزمان، وتغيير نظرتهم إلى العالم وإلى نفسه. فالساعة الميكانيكية مكنت من فصل الزمن عن المكان. والطرق السيارة قلصت المكان. وهذا أدى إلى التسريع التقني إلى تقليص المكان والزمان. وأدى هذا إلى تغيير علاقة الإنسان بالآخرين وعلاقته بالأشياء.

دراسات في علم اجتماع الزمان

تسريع إيقاع الحياة ومفارقات تجربة الزمن:

حسب ليفين R. Levine من السهل تقديم تعريف يسهل تطبيقه إمبيريا. فقياس القاع الحياة ممكن بواسطة ثلاثة مؤشرات. الأول يتمثل في سرعة التنقل - التي يبلغها الراجل من أجل قطع عشرين مترا في وسط المدينة، وثانيا سرعة العمل أي زمن يكفي لعامل البريد مثلا من بيع طابع الزبون. وثالثا دقة الساعات العمومية. هذا التعريف ميزته أنه يمكن من المقارنتان بين الثقافات التي أعطت نتائج مهمة. تسريع إيقاع الحياة يتكون إذن من ارتفاع سرعات النشاطات المتراكمة ومن تحول في إدراك زمن الحياة اليومية.

الزمن المحرك الاقتصادي:

التصور العصري للزمن، المطبوع والمكون بطريقة حاسمة بواسطة تشييء وتسليع الزمن (السلطة) أصبح مميذا لعملية الإنتاج الرأسمالية بمعنى في تحوله إلى ثروة نادرة، مسيرة حسب معايير النجاعة. الزمن منذ الآن اعتبر كمقدار مجرد وخطي وبدون خصائص خاصة. فمنذ الآن زمن العمال هو الذي يشتريه رب العمل وليس منتج عملهم.

إن التسيير الرأسمالي يقوم أساسا على الأقل على ثلاثة طرق. أولا على واقع أخذ الأسبقية واستغلال هذه الأسبقية، تصديق لعبارة ماركس التي حسبها كل اقتصاد يختزل في نهاية التحليل إلى اقتصاد في الزمن. وهو ما عبرت عنه مقولة فرانكلين أحسن تعبير: "عندما تكون الزمان مالا، السرعة تصبح ضرورة مطلقة لا يمكن تجنبها من أجل الأعمال"^x إذا اتبعت التحليل المقترح من ماركس فإن زمن العمل أولا يكون عاملا من عوامل الإنتاج الإنسانية، بمعنى خالق للقيمة بحيث أن الزمن يتحول إلى قيمة بواسطة العمل.

الوجه الثاني المرتبط بالأول هو أخذ الأسبقية واستغلال هذه الأسبقية بإدخال تكنولوجيا جديدة للإنتاج أو منتجات جديدة، تأخذ أهمية جوهرية من أجل تحقيق زيادة الإنتاج، بمعنى إمكانية بيع منتجات لأعلى من سعر الإنتاج في فترة محددة. والوجه الثالث أخيرا، هو إعادة الإنتاج المشاركة للرأسمال المستثمر بسبب مبدأ الفائدة والإثناك المعنوي للآلات والاستثمارات تصبح ضرورة حيوية بالنسبة للمؤسسة في النظام الاقتصادي الرأسمالي.

بن معمر عبد الله

وزمن العمل الصناعي انفصل عن زمن الحياة اليومية بالتدرج بطرق ثلاثة:

أولاً: زمن العمل المأجور المرتبط بمؤشرات مقدمة من الساعات الميكانيكية، وبالتالي مستقلة عن الإيقاعات الطبيعية التي نظمت الحياة الاجتماعية لقرون بل لآلاف السنين. إن الأيام والفصول والمناخ توقفوا عن لعب دور في عملية الإنتاج الصناعي. العمل صار يجري خلال 24/24 ساعة.

ثانياً: وفي نفس الزمن، مع التصنيع تطور انفصال مكاني وزماني حاسم ومطبق بين العمل والوقت الحر، وكان لهذا نتائج محددة على تجربة الزمن وتخطيطه بالنسبة للأفراد والبنيات الزمنية للمجتمع المعاصر في مجموعة. الانفصال المذكور أدى إلى ميلاد الوقت الحر الذي يقابله زمن العمل وكلاهما نظاماً بطريقة جذرية سلوك وأسلوب الحياة والأفراد.

ثالثاً: زمن العمل انفصل عن موضوع العمل بمعنى قاد إلى مدة مجردة محددة بواسطة التقويم والساعة وليس أبداً بالإمكان المقدمة أو بالأحداث. كبدية العمل ونهايته منذ الآن تحددان بواسطة الجرس والمؤشر وليس بمقتضيات الأعمال المنجزة. لقد صار زمن الرأسمالي الصناعي زمن مجرداً وخطياً.

في إطار عملية استدخال هذا المفهوم الجديد للزمن، مؤسسات المجتمع المعاصر في مجموعها (إلى جانب المصانع، المستشفيات، السجون، الثكنات، المدارس) مورست عليها تلك التوجهات والضغوطات الزمنية لقد خلق المجتمع المنضبط ضرورة التوافق مع انضباط زمني صارم يلعب دوراً مركزياً في كل هذه المؤسسات، وشكلت الساعات في كل ذلك وسائل المراقبة بامتياز، باعتبار أنها تكسر الإيقاعات الخاصة كما كانت تحددها الطبيعة والعادة. وهذا ما أدى ميمفورد L. Mumford إلى التأكيد بأن الساعة وليس الآلة التجارية هي التي كانت بمثابة الآلة المفتاح للعصر الصناعي.

وعد التسريع: المحرك الثقافي:

الأدبيات السوسيولوجية لم تمنع بعض الكتاب الذين تبنا أطروحة أن المحرك الاقتصادي في النهاية هو وحدة الذي يجب أن يؤخذ في الاعتبار كمسؤول عن الميل إلى التسريع في زمن الحداثة، أن يكون التسريع المنطلق من عامل اقتصادي وتقني ثقافياً أيضاً، لأن التسريع والارتفاع في الإنتاج يستدعيان لا محالة

دراسات في علم اجتماع الزمان

ارتفاعا في الاستهلاك والانتقال وأدى هذا إلى بروز ظواهر مثل الأكل السريع Fast Food وهذه ظواهر ثقافية.

إن التصور الأحادي مرفوض، فثقافة الحداثة اتجهت أيضا نحو التسريع.

التسريع، العولمة، ما بعد الحداثة:

الدول التي تطورت على المنوال الغربي تعرضت في العشرينات الأخيرة من القرن العشرين إلى رفع تسارعي أدى إلى تحولات في الأسس الزمكانية، هذا التسريع مس الاقتصاد والتكنولوجيات والاتصال والثقافة، وبلغ التسعينات تفجرت ثلاث ثورات تاريخية، الأولى سياسية مع انهيار الاتحاد السوفياتي والانفتاح السياسي والاقتصادي لبلدان أوروبا الشرقية، والثورة الرقمية فرضت نفسها مع تطور الأنترنت والتلفزيون عبر الأقمار الاصطناعية، وأخيرا الثورة الاقتصادية مع الإنتاج "في الوقت".

هذه التطورات الثلاث يجب أن تفهم كأشكال للعولمة. وتبادل وانتقال المعلومات والنقود والسلع والناس، وحتى الأفكار والأمراض على مسافات معتبرة ليس أمرا جديداً، الجديد هو الساعة وغياب المقاومة التي يمكن أن تحدث بها. العولمة كعملية يمكن تعريفها مع هارفي كموجة جديدة، أو إيقاع جديد في الضغط الزمكاني، أو أيضا مع جيدنز بلوغ درجة عالية من ارتفاع الفوارق الزمكانية، بمعنى ارتفاع قدرة التنسيق الزماني والمكاني، هذه العملية ترافقت مع تقليص المسافات.^{xi}

¹-ماكس قيبر، الأخلاق البروتستانتية ورو الرأسمالية، ترجمة محمد علي مقلا، مركز الإنماء القومي، لبنان: ب.س

² -Nicole Aubert, La culte de l'urgence –La société malade du temps, Flammarion; Paris, 2003, p 21-22.

³ - Ibid, p 13.-

⁴ Ibid, p 152-153.

⁵ -- Ibid, p 35.

⁶-Hartmunt Rosa, Accélération, une critique sociale du temps, La découverte; Paris, 2010, pp. 14-16.

⁷ - Ibid, p 28.-

⁸ -Ibid, p 75.

⁹Ibid, p 86.

¹⁰ - Ibid, p 201

¹¹-Ibid, p 201